



أنوار السنة المحمدية

(التعليق على رياض الصالحين)

المحاضرة الثامنة

المقدّمة

1. إشارة إلى حسن اختيار الإمام
النووي للأحاديث وترتيبها في
الأبواب، وفقهه في السنة.

2. ضرورة الاطلاع الشّامل على
السّنة النبوية الصحيحة، وحفظ
أهم الأحاديث من قبل طلاب العلم
والعاملين في التّعليم والدعوة.

باب الصبر

الأحاديث

6. عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ فَقَالَ: "اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي" فَقَالَتْ: إِلَيْكَ عَنِّي، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبِّ بِمُصِيبَتِي، وَلَمْ تَعْرِفْهُ، فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ، فَقَالَتْ: لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقَالَ: "إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى" متفقٌ عليه. وفي رواية لمسلم: "تَبْكِي عَلَى صَبِيٍّ لَهَا".

الفوائد

هناك مقامات يجدي فيها الصبر أكثر من غيرها، فأجر الصبر يتفاوت بقدر المصيبة، وبقدر ما يكون في القلب من تسليم، وكلما بعدت المصيبة وهدأ القلب فإن الصبر يكون أسهل، أما عند الصدمة الأولى فالصبر أصعب وفضله أعظم.

التكليف الشرعي يُخرج الإنسان من استجاباته النفسية التلقائية إلى أن يهيمن عليها بقرارات عقله الناتجة عن امتثال أمر الله سبحانه وتعالى، فيمنع نفسه عن الإقدام على ما لا يحبه الله أو التأخر عما يحبه الله، وهنا موضع الابتلاء وعليه يترتب الأجر.

الذي يمكن أن يصبر عند الصدمة الأولى ويقاوم هواه هو الذي لديه علم سابق وإيمان سابق وتجربة سابقة في مجاهدة النفس وتعوّد على السير في طريق الإيمان والعبودية.

من هدي النبي ﷺ أنه لم يكن على باب بيته بواب، وكان يسهل الوصول له.

من هديّ النبي ﷺ النصيحة الفردية والمباشرة، كما أن من هديه التّورية أحياناً والنصيحة العامة، وذلك يختلف بحسب الشخص والحال والسياق.

7. وَعَنْ أَبِي هَرِيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: مَا لِعَبْدِي الْمُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبِضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُمَّ اخْتَسَبَهُ إِلَّا الْجَنَّةَ" رواه البخاري

الفوائد

هذا من آنس الأحاديث للمؤمن الذي يفقد صفيّاً له في الدنيا.

الأجريتفاوت بتفاوت شدة المصيبة، ففقدان الصفيّ ليس كفقدان غيره، وأسلوب الحديث فيه تأكيد على هذا المعنى.

مدار الأجر على الاحتساب، والاحتساب في الأصل معنى قلبي، ويعبر عنه بقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا حديث قدسي، والأحاديث القدسية ممّا يثبت أن الوحي كان ينزل على النبي ﷺ فيما هو أوسع من القرآن الكريم.

8. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الطَّاعُونَ، فَأَخْبَرَهَا "أَنَّهُ كَانَ عَذَاباً يَبْعَثُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، فَلَيْسَ مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ فِي الطَّاعُونَ فَيَمُوتُ فِي بَلَدِهِ صَابِراً مُحْتَسِباً يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ" رواه البخاري.

الفوائد

في الحديث إعادة وضع الأمور في موضع غير المعتاد عند الناس، ففيه أنّ الوباء رحمة، وكان من قبل عذابًا، فالحدث نفسه قد يكون في إرادة الله رحمةً لقوم وعذابًا لآخرين، وهذا يعرفه أهل العلم بالله وبسننه وأقداره العالمين بأحوال الناس، لذلك لما جاء الطاعون وقد فهم الصحابة هذا الحديث وأمثاله كان تعاملهم معه مختلفًا، فقد ورد أن أبا عبيدة ومعاذ بن جبل سألا الله أن يجعل لهما ولأهلهما من هذا الوباء نصيبًا، وقالوا: أنهما لا يحببان لو أن لهما بهذا البلاء الدنيا وما فيها، وماتا في هذا الطاعون هم وكثير من الصحابة.

الله أراد بهذه الأمة خيرًا، ومن جملة الخير هو ما يقع عليها من الابتلاء، وهذا من ضبط المقاييس، فالخير لا يعني فقط الرخاء بل إن القرآن وضع عكس ذلك، ففي سورة الأعراف ذكر أن الرخاء كان استدراجًا لا رحمة، فلا تلازم بين الرخاء ورضا الله، ولا تلازم بين البلاء وغضب الله، وهذا يحتاج فقهًا.

من الأطر التي ننظر بها للسنة إطار ضبط المفاهيم وتصحيح المعايير، خصوصًا أننا في زمن انتشرت فيه المعايير الزائفة بسبب الهيمنة الثقافية والفكرية التي حصلت على العالم الإسلامي من خلال السيطرة الغربية بالاستعمار وما رافقه من استشراق، ومن بعده العولمة وأدوات العالم الحديث من إعلام وغيره.

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتِيهِ فَصَبَرَ عَوِضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ" يُرِيدُ عَيْنِيهِ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

الفوائد

في الحديث ذكر جانب من الجوانب التي يُصبر عليها ويكون فيها ثواب خاص.

من الفقه في النظر إلى الأمور التعبدية التي يكون فيها ثواب أن يُنظر لهذا الثواب من جانبين، الجانب العام وهو الثواب الوارد في أصل العمل، والجانب الخاص وهو ما ورد من ثواب في فروع هذا العمل، وهذا يعين على مزيد عمل واحتساب، فالصبر بشكل عام له ثواب، والصبر على أشياء معينة له ثواب خاص إضافي، وكذلك الذكر وغيره، وكل هذا يدخل في العمل الصالح.

10. وعن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس رضي الله عنهما ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ فقلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إني أضرع، وإني أتكشّف، فادع الله تعالى لي قال: "إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله تعالى أن يعافيك" فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشّف، فادع الله أن لا أتكشّف، فدعا لها. متفق عليه.

الفوائد

مرض الصرع مرض شديد ومزمن، وهذه المرأة طلبت من النبي ﷺ أن يدعو لها ليُكشف عنها المرض، فخيرها بين الصبر ونيل الجنة أو أن يدعو لها ويُكشف عنها المرض، وفي هذا إشارة إلى أن صبرها على هذا المرض من أرقى الأعمال وأولاها أن تكون سبباً لتدخل الجنة.

قول ابن عباس فيه إشارة إلى أنهم فهموا أن هذا أمراً حتمياً.

فضل الصبر على المرض ورجاء دخول الجنة بسبب ذلك ليس خاصًا بهذه المرأة فقط، فالمؤمن إذا أصيب بمرض وصبر عليه فهو من أولى الناس أن يرجو ثواب الله ورحمته وجنته بصبره هذا.

11. وَعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، ضَرْبُهُ قَوْمُهُ فَأَذْمُوهُ وَهُوَ يَمْسُحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ، يَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ" متفقٌ عَلَيْهِ.

الفوائد

من أنبياء الله من ضُرب واعتدى عليه قومه ومنهم من قُتل، فمن كان كريمًا عند الله لا يعني ذلك أنه لن يبتلى بمثل هذه الابتلاءات، بل أشد الناس ابتلاءً هم الأنبياء.

العلم بالله يكون عبر العلم بأسمائه وصفاته، والعلم بآياته الشرعية، والتفكر في آياته الكونية، والعلم بأقداره وسننه، ومن سننه أن يبتلي أوليائه.

يحكي: يفعل مثله.

12. وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حَزَنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ، حَتَّى الشُّوْكَةُ يُشَاكُّهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ" متفقٌ عَلَيْهِ. و"الْوَصَبُ": المرضُ.

الفوائد

يُنظر للأبواب المختلفة في الدّين من زاويتين، الفضل العام والفضل الخاص، وفي الحديث ذكر فضلًا خاصًا للابتلاء وهو أنه يُكفر الذنوب وهذا قد يكون من أهم أسباب دخول الجنة، بتخفيف الذنوب وإسقاطها.

من يتأمل في مجموع النصوص الواردة في الشريعة يحب الابتلاء لكونه سببًا يحبه الله لأجله ويرضى عنه بسببه ويكفر به سيئاته، وهذا من تصحيح المفاهيم.

تفصيل أنواع الابتلاءات ليوضح أن هذه الأنواع المختلفة كلها داخلية فيه وفي أجره.

الوصب: المرض الدائم.

المؤمن لا يتمنى الابتلاء ولكن إذا أصيب فليحتسب وليبشر بالخير فهو رحمة وتكفير لذنوبه ليأتي يوم القيامة صافيًا، ولعل الابتلاء يكون هو سبب النجاة يوم القيامة، وعندها يتمنى لو كان الابتلاء قد طال.

رصيد الحسنات فارق جدًا في الآخرة، والتفاوت في درجات الجنة عظيم، وكذلك مقدار السيئات فارق.

مقدار العيش في الدنيا مقارنة بالآخرة لا شيء، وسيتيقن الإنسان من ذلك يوم تقوم الساعة.

{يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا}
{وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ}
{كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا}

الحساب سيشمل كل الأعمال، صغيرها وكبيرها، فالله سريع الحساب، والجزاء الأخرى سيكون على كل شيء، وعندها لن ينفع الإنسان إلا عمله، ومن أعظم ما يُرتجى حينها هو تلك الابتلاءات التي تكفر الذنوب.



أنوار السنة المحمدية

(التعليق على رياض الصالحين)